(٢٢) الحارث المُحاسبي[١]

ذكر أبي عبد الله الحارث بن أسد المُحاسبي رحمه الله:

مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومئتين، نوّرَ الله قبرَه، وعطّر مشهده.

كان رحمه الله من مشايخ العلماء، مُزيّنًا بالعلمِ الظاهر والباطن، مقبولاً في المعاملات والإشارات، مرجعًا للأولياء في جميع الفنون.

وله تصانيفُ كثيرةٌ في أنواع العلوم[٢].

وكان سخيًّا[٣] ذا همَّةٍ عالية، ومروءةٍ في الفِراسة والحذاقة، عديمَ النظير، وفي وقته شيخَ المشايخ في بغداد، مخصوصًا بعلم التجريد والتوحيد، وفي المُجاهدة والمشاهدة، واصلاً إلى أقصى الغاية، مُجتهدًا في الطريقة، وكان بصريَّ الأصل.

نقل أنه رحمه الله كان يتمشّى في بعض الأسواق، فإذِ التقى بشخصٍ أمسكَ امرأةً، وجرَّ سكينًا، وما كان يستجري أحدٌ أن يخلّصَ المرأة من ذلك

---

(١) طبقات الصوفية ٥٦، حلية الأولياء ١٠/ ٧٣، تاريخ بغداد ٨/ ٢١١، الرسالة القشيرية ٤٩، الأنساب ١١/ ١٥١، طبقات الفقهاء لابن الصلاح ١/ ٤٣٨، مناقب الأبرار ١٦٥، صفة الصفوة ٢/ ٣٦٧، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ١٤٤، الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٤، وفيات الأعيان ٢/ ٥٧، تهذيب الكمال ٥/ ٢٠٨، سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠، العبر ١/ ٤٤٠، ميزان الاعتدال ١/ ٤٣٠، مرآة الجنان ٢/ ١٤٢، الوافي بالوفيات ١١/ ٢٥٧، طبقات السبكي ٢/ ٢٧٥، طبقات الإسنوي ١/ ٢٦، البداية والنهاية ١٠/ ٣٠٣، طبقات الأولياء لابن الملقن ١٧٥، النجوم الزاهرة ٢/ ٣١٦، نفحات الأنس ٧٥، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٧٥، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٥٨٥، شذرات الذهب ٢/ ١٠٣، مفتاح السعادة ٢/ ١٧٢.

(٢) من مؤلفاته: رسالة المسترشدين، وكتاب التفكير والاعتبار، وكتاب الرعاية. انظر هدية العارفين ١/ ٢٦٤.

(٣) في (ب): وكان شيخًا.

الشخص، فذهب إليه الحارث، وقال في أذنه: إنَّ الله تعالى يراك في هذه الحالة. فرمى الشخصُ السكينَ، وترك المرأة، وبكى، وتابَ على يد الشيخ رضي الله عنه، وصارَ من الأبدال.

نقل أنّه ورثَ من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذْ منها شيئًا، وبعثَهُ إلى بيت المال، قال: لأنه قال النبيُّ ﷺ: «القدريةُ مَجوسُ هذه الأمة»[١]، وأبوه كان يقول بالقدرِ ـ أي كان قَدَريًا ـ فرأى في الورع أن لا يأخذَ من ميراثه، وقال: صحّتِ الروايةُ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يتوارثُ أهلُ الملَّتَيْنِ شتّى»[٢] ـ أي: أهل ملّتين مفترقين.

يُحكى عن الجنيد رحمه الله أنه قال: مرَّ بي الحارثُ المُحاسبي، فرأيتُ منه أثرَ الجوع، فقلت: يا عمّي، لا تدخل الدار فتتناول شيئًا؟ قال: نعم. فدخلنا

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩١) في السنة، باب في القدر من حديث عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه أبي حازم سلمة بن دينار، عن ابن عمر، وقد جزم المنذري بأن أبا حازم لم يسمع من ابن عمر، فالإسناد منقطع.

قال ابن الأثير في جامع الأصول ١٠/ ١٢٨: (القدرية) في إجماع أهل السنة والجماعة: هم الذين يقولون: الخير من الله، والشرُّ من الإنسان، وإن الله لا يريد أفعال العصاة، وسُمُّوا بذلك، لأنهم أثبتوا للعبد قدرةً توجِد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونَفَوْا أن تكون الأشياء بقدر الله وقضائه، وهؤلاء مع ضلالتهم يضيفون هذا الاسم إلى مخالفيهم من أهل الهدى، فيقولون: أنتم القدرية، حين تجعلون الأشياء جاريةً بقدرٍ من الله، وأنكم أولى بهذا الاسم منا، وهذا الحديث يبطل ما قالوا، فإنه ﷺ قال: «القدرية مجوس هذه الأمة» ومعنى ذلك: أنهم لمشابهتم المجوس في مذهبهم، وقولهم بالأصلين ـ وهما النور والظلمة ـ فإن المجوس يزعمون أن الخير من فعل النور، والشرَّ من فعل الظلمة، فصاروا بذلك ثنوية، وكذلك القدرية لما أضافوا الخير إلى الله، والشرَّ إلى العبيد؛ أثبتوا قادرَيْنِ خالِقَيْن للأفعال كما أثبتَ المجوس، فأشبهوهم، وليس كذلك غير القدرية، فإن مذهبهم أن الله تعالى خالق الخير والشرِّ، لا يكون شيء منهما إلا بخلقه ومشيئته، فالأمران معًا مضافان إليه خلقًا وإيجادًا، وإلى العباد مباشرة واكتسابا.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ١٧٨، وأبو داود (٢٩١١)، والبيهقي في السنن ٦/ ٢١٨، والخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٢٩٠، وابن ماجه (٢٧٣١)، والحاكم ٤/ ٣٤٥ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

الدار، وطلبتُ شيئًا أُقدّمه إليه، وكان في البيت شيءٌ من طعامٍ حُمل إليَّ من عرسِ قومٍ، فقدّمتُ إليه، فأخذَ لقمةً، فأدارها في فمه مرّاتٍ، ثم إنه قامَ وألقاها في الدهليز ومرّ، فرأيته بعد ذلك بأيام، وسألته عن ذلك، قال: إنّي كنتُ جائعًا، وأردتُ أن أسرَّكَ بأكلي، وأحفظَ قلبك؛ ولكن بيني وبين الله علامةٌ أن لا يُسوّغني طعامًا فيه شبهةٌ، فلم يُمكّنني ابتلاعه، فمن أين كان ذلك الطعام؟ قلت: إنه حُمل إليَّ من دار قريبٍ لي من العرس، ثم قلت: تدخلُ اليوم؟ قال: نعم. فقدّمت إليه كسرةً كانت لنا، فأكلَ، وقال: إذا قدَّمْتَ إلى فقيرٍ شيئًا، فقدّم مثل هذا.

نقل أنه كان في المحاسبة مع النفسِ جدٌّ عظيمٍ، ولذا سُمّي مُحاسبيًا.

وقال: لأهل المحاسبة عشرُ خصال: الأولى: أن لا يحلفَ بالله لا صدقًا ولا كذبًا، ولا سهوًا ولا عمدًا. الثانية: الاحتراز عن الكذب. الثالثة: تركُ خلاف الوعد، فإن قدرتَ على الوفاء لا تخالفْ، وإن لم تقدرْ عليه لا تعد. الرابعة: تركُ اللعن وإن كان على ظالمٍ. الخامسة: ترك الدُّعاء على أحدٍ أساءَ إليك قولاً أو فعلاً، ولا تريد مجازاته؛ بل تتحمَّلُ عنه لله تعالى. السادسة: ترك الشهادة على الناس بكفرٍ أو بشركٍ أو نفاقٍ، فإنه من الرحمة والشفقة عليهم، وسببٌ للبعد عن مقتِ الله تعالى. السابعة: ترك قصد المعصية ظاهرًا وباطنًا. الثامنة: رفع تعبك وتشويشك عن الناس قليلاً أو كثيرًا. التاسعة: قطع الطمعِ عن الخلق، واليأس عن الجميع. العاشرة: أن لا ترى لنفسك فضلاً على أحدٍ، ولا تعتقد أنك خيرٌ من أحدٍ، إذِ العاقبةُ غيرُ معلومة، فإن كنت من أهلِ السعادة عسى أن تتوجّه الشقاوة والعياذ بالله، وإن كنت من أهلِ الشقاوة تحتملُ أن تصيرَ سعيدًا في الأُخرى، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١].

قال ذو النون: لا تنظرْ على أحدٍ بالحقارة، وانظر إلى عاقبة أمرِه، إذ يمكن أن يُرفعَ هو وتُخفضَ أنت.

ومن كلام المحاسبي رضي الله عنه:

المُراقبةُ علم القلب في قرب الحقِّ.

الرضا اطمئنانُ القلب تحت مجاري الأحكام.

الصبرُ أن يصير الإنسانُ هدفًا لسهام البلايا.

التوكُّلُ رؤية الأسباب من الحقِّ[١].

التسليمُ هو الثبوت والتثبُّتُ عند نزول البلايا بلا تغيُّرٍ في الظاهر والباطن.

الحياء هو التباعدُ عن الأخلاق الذميمةِ التي لا يرضى الله بها.

المحبَّةُ الميلُ بالكلّيةِ إلى شيءٍ، ثم إيثارُهُ واختيارُه على الجسدِ والروح والمال، والموافقةُ معه في السرِّ والعلن، ثم بعد ذلك الاعترافُ بالتقصير.

الخوفُ أن تعتقد أنَّك لا تتحرَّكُ حركةً إلاّ وأنتَ مؤاخذٌ بها في الآخرة.

علامةُ الأُنس بالحقِّ الوحشةُ والنفرةُ عن الخلق، والتلذُّذُ بحلاوة ذكر الله تعالى.

بقدر ما يكون للأُنسِ في القلب قرار يفرُّ أُنس الخلقِ[٢] عن القلب.

الصادقُ من لا يبالي إن لم يكن له عند الخلق مقدار، ويحبُّ أن لا يطلعَ أحدٌ على[٣] ذرةٍ من أعماله.

احذروا من ضعف العزم، فإنَّ العدوَّ وهو شيطان يغلبك عليك[٤].

قال لفقير: كن لله، وإلاّ فلا تَكن.

وقال: من هذّب نفسَه بالرياضة فحريٌّ[٥] أن يهديَهُ الله تعالى إلى المقامات.

---

(١) في (ب): الأسباب حقّ الحق.

(٢) في (ب): قرار ثم يفر أنس.

(٣) في (ب): أن لا يطلع عليه إنسان على ذرة.

(٤) إشارة لقوله تعالى في سورة النساء، الآية ٧٦: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

(٥) في (أ): كتب تحت كلمة (فحري): لائق.

من أرادَ أن يتلذَّذَ بصحبة أهلِ الجنة ونعيمها، فليقنع بصحبة أهلِ الفقر.

من زيَّنَ باطنَه بالمراقبة والإخلاص لله تعالى، يتحلّى ظاهرُه بالمجاهدةِ واتِّباعِ السنة.

من كان بحركات القلب في عالم الغيب خيرٌ من أن يكون بحركاتِ الجوارح في عالم الشهادة.

العارفون يغوصون في بحرِ الرضا، ويسبحون في لجَّةِ الصفا، ويُخرجون جواهرَ الوفا، لا جرم يصلون إلى الحقِّ في السرِّ والخفا.

قال ابن مسروق: مات الحارثُ المحاسبي رحمه الله وهو محتاجٌ إلى درهمٍ[1]، وخلّف أبوه ضياعًا وعقارًا، ولم يأخذْ منه شيئًا.

اللهم أنزلْ عليه شآبيب رضوانك، وارزقنا مُتابعة أوليائك سرًّا وجهارًا، ليلاً ونهارًا، وانظر إلينا نظرَ العناية، يا كريم يا رحيم.

* * *

(١) في (ب): وهو يحتاج إلى درهم.